

الفكر الصوفي بإفريقية (ق 9 هـ / 15 م) (*)

(أطروحة دكتوراه في الآداب والحضارة العربية)

د. محمد الكحلوي

المعهد الأعلى لأصول الدين
جامعة الزيتونة (تونس)

المدار الأساسي لهذه الأطروحة هو الاشتغال على نصوص نادرة في تاريخ التصوف الإسلامي، ألّفت بتونس على وجه التخصيص، وبعض هذه النصوص مخطوطة مثل كتاب "الفتح المنير" لمحمد بن المسعود الشابي، و"مجموع الفضائل" لابن مخلوف الشابي كذلك كتاب الراشدي (ق 9 هـ) "ابتسام الغروس في مناقب سيدي بن عروس" الذي اهتمّ صاحب الأطروحة بالاشتغال على الجزء النظري منه، يتعلّق موضوعه بقضايا الوجود والمعرفة والأخلاق وجماليات السّماع، كذلك أثار أحمد زروق الفاسي البرنسي (ت 899 هـ / 1492 م) صاحب المؤلفات الكثيرة في التصوف وعلم الكلام والفقه، وقد امتاز بميله إلى التوفيق بين التصوف والفقه أي بين منهج الذّوق وطريق الحدس في إدراك المعاني والحقائق من ناحية ومنهج القياس والنقل الذي وسم كتابات الفقهاء والمتكلمين من ناحية أخرى، وعلى ذلك لُقّب أحمد زروق

(*) أطروحة دكتوراه ناقشها الأستاذ محمد الكحلوي بكلية الآداب والفنون والإنسانيات جامعة منوبة، بتاريخ 26 جوان 2007.

بـ"محتسب العلماء والأولياء". واهتم الأستاذ محمد الكحلوي بدراسة العلاقة التي تربط بين التصوف والفلسفة، والتصوف والعلوم الدينية الأخرى ليكشف عن فريدة التجربة الصوفية في تمثّل المعتقد الديني، وفهمه، والانفتاح به على المتعدّد والمختلف، وعلى التدوّق الجمالي للمعاني والحقائق، وهو ما نظّر له الصوفية ضمن مبحث "السّماع" الذي يعني تدوّق معاني الآيات والكلم والأشعار والألحان باعتبارها ذالة على حقائق انطولوجية وكسمولوجية وميتافيزيقية، وهكذا فمع كلّ قراءة (تلاوة) للقرآن يكتشف الصوفي معاني جديدة، وقد بيّن صاحب الأطروحة أنّ لذلك صلة بالتجربة الروحية التي يعيشها الصوفي، ويتدرّج في أطوارها ضمن ما يصطلح عليه بـ "المقامات"، "الأحوال"، فالمقام، مقام فكر أو معرفة أو إدراك أو تقوى أو محبة أو فناء في ذات المحبوب، وسمّي المقام كذلك لثبوته، في حين سمّي الحال حالاً لتحوّله ويتعلّق الحال بنوع من التجلي أو الكشف أو الوجد تتبّعه سعادة روحية قصوى تكون قادحاً لكتابة الشعر الجميل (شعر الرقائق) أو قول حقيقة الوجود على نحو من الرّمز والاختزال، ذلك أنّ اللّغة في تصوّر الصوفيّة لا تستطيع أن تقول كلّ شيء. ومن هنا قال العارف عبد الجبار النّفري في كتابه "المواقف والمخاطبات": "إذا اتّسعت الرّؤيا ضاقت العبارة".

لقد اشتغل صاحب هذه الرسالة الجامعية على مدارات التجربة الروحية لدى صوفية القرن التاسع للهجرة بإفريقية وبلاد المغرب العربي، ليكشف عن دورها في تشكيل المفاهيم وبناء المصطلحات التي تتحدّد مدلولاتها في ضوء ثمرات تلك التجربة الروحية، وانطلاقاً من المعراج الروحي الذي تترقى عبره ذات العارف الصوفي بعد أن يحصل لها الفتح المعرفي، وتجتيبها الذات الإلهية إليها. ومن هنا اعتبر الصوفية أنّ مرتبة "الإنسان الكامل" المعبر عنها في أدبياتهم بـ "الولاية" منحة واصطفاء من الله، بعد نيل مقام الفتح الإلهي (فتح العارفين) وتحقيق "منزلة القربى".

وهكذا فنظرية المعرفة لدى الصوفية ليست مسألة نظرية عقلية، إنها تتجاوز ذلك إلى محاولة كتابة تجربة الذات وصياغة المكاشرات والتجليات ومدارات الحدس والتدوّق القلبّي والشهودي، إذ يشهد الصوفي رؤية ربّه بالقلب

والبصيرة في كلّ الوجود ويدرك جلاله جمالها، ومن ثمّ أمكن الحديث عن أمرين مهمّين : أولهما انفتاح المقدّس على الجمالي والذوقي في التجربة الصوفية، وثانيهما وهو الأهم أن العقل لم يغيب دوره في التجربة الصوفية ولم يقع إطلاقاً إلغائه، وإنما كانت هناك ضرورة إلى معرفة محدوديته، وإدراك طبيعة إمكانياته، إذ أنّه، وكما أكّدت ذلك الاستمولوجيا المعاصرة من العسير أن يدرك العقل كنه الوجود وأسراره ويعرف الميتافيزيقا (الإلهيات والعلويات والنبوّات)، فأحكام العقل كميّة وهي قابلة للتغيّر والتحول والدحض، وذلك ما يؤكّده تاريخ علوم العقل والمعرفة العلمية ذاتها، وفي هذا قال غاستون باشلار Gaston Bachelard إن "تاريخ العلم هو تاريخ تصحيح أخطاء"، واستبعد كانط E.Kant الميتافيزيقا من دائرة العقل، لكونه لا يستطيع أن يُصدر بشأنها أحكاماً يقينية بحجم صرامة أحكامه في مجال الفيزياء والرياضيات والعلوم التجريبية.

هكذا إذن انفردت التجربة الصوفية بقول خلاق وذوي جدوى في مجال نظرية المعرفة، وهو قول بدأت الدراسات الحديثة في مجال الفلسفة والعلم تعطيهِ أهميّة كبرى، ومن هذا المنطق شدّد صاحب الأطروحة على دراسة إشكاليات المعرفة والتأويل لدى الصوفية، ذلك أنّ التأويل لدى الصوفية استحال إلى نظرية فلسفية ذات أسس معرفيّة عميقة محدّدة، تفهم حقيقة الوجود الإنساني ضمن معالم نسق محدّد العناصر والبُنى هدفه إدراك حضور القدسي في الإنسان والكون، وتجلي الله في الوجود والإنسان وفق ما يصطلح عليه الصوفية "بمراتب التّجليات" الإلهية.

وقد تناول الأستاذ الكحلاوي هذه القضايا وما تفرّع عنها من مسائل في أبواب ثلاثة كبرى إضافة إلى مقدمة وخاتمة وفهارس وكشّافات للاصطلاحات والمفاهيم والأعلام.

تعلّق الباب الأول من هذه الرسالة بدراسة الجذور التاريخية والمعرفيّة لظهور الفكر الصوفي بإفريقية وهي جذور ثقافية وحضارية مشرقية، ومغربية أندلسية، وقد استنتج الباحث في هذا الباب أن بلاد إفريقية عرفت الزهد والتصوف مبكراً، مباشرة بعد ظهورهما في المشرق وتطرق إلى تجارب

الزهاد والصوفية الأوائل أمثال شقران بن علي وعبد الخالق القنات وابن غلبون، ليهتم بعد ذلك ببيان معالم ظهور التصوف، وتبلور تيار الحياة الروحية بإفريقية من خلال تجارب أعلام كبار مثل عبد الرحمن الصقلي وابن إسحاق الجبنياني ومحرز بن خلف، لكن اكتمال صرح التصوف تياراً فكرياً دينياً لم يتحقق إلا مع العهد الموحدى وبدء الفترة الحفصية (ق 7هـ/13م) حيث ظهر أعلام مثل عبد العزيز المهدي وأبي مدين وأبي سعيد الباجي وأبي الحسن الشاذلي وعائشة المنوبية والذباغ القيرواني.

وخاض صاحب الأطروحة في الفصل الثالث والأخير من هذا الباب في قضايا الفكر الصوفي بإفريقية كما تبلورت في القرن الثامن للهجرة وهي قضايا المعرفة الذوقية، وشرعية اتخاذ الشيخ إماماً، وفق التصور الخلدوني للتصوف، كما تجلى ذلك في كتابيه "المقدمة" و"شفاء السائل".

أمّا في الباب الثاني فقد تناول الأستاذ الكحلوي قضايا الفكر الصوفي بإفريقية (ق9هـ)، فبحث في الفصل الأول المصادر النظرية لهذا الفكر، وهي صوفية أخلاقية وصوفية حكمية وفلسفية يونانية ثم إسلامية وكلامية تيولوجية، وتطرق في الفصلين الثاني والثالث إلى دراسة إشكاليات المعرفة وأدواتها، مبرزاً أن الكشف والحدس والذوق والتجلي هي وسائل المعرفة الصوفية وهي في صلة بالحياة الروحية ومدوامة الذكر والتأمل والإخلاص في الحب الإلهي. وفي الباب الثالث درس المؤلف أوجه تجليات الفكر الصوفي بإفريقية (ق9هـ/15م) في الواقع والتاريخ، فأبرز أن أعلام هذا الفكر استطاعوا أن ينتجوا قيماً خلقية وفضائل، ويؤسسوا لحكم نظرية وعملية أثرت في الواقع، وجلبت لهم محبة الناس، فصار الفقهاء وعلماء الدين يحتنونها، ويتخذون منها مصدراً للريادة العلمية والوجاهة الاجتماعية. وبين كيف أن أعلام هذا الفكر تصنّوا بقوة إلى أوجه تحريف التصوف، ورفضوا مظاهر الاعتقاد الساذج الذي لا هم لأصحابه إلا استجلاب البركة والصلاح، إذ التصوف في جوهره فكر وعلم وفهم عميق للذين يتعالى به إلى المطلق ويدرك من خلاله عن تجليات الكلي في التاريخ، ولهذا السبب وجد ذاك الخلاف الحاد بين الصوفية والفقهاء، لكون الفقهاء لا يتجاوزون ظاهر النص، ويبحثون فقط عن الأحكام الشرعية من أدلتها الإجمالية أمّا الصوفية فيطلبون عمق المعنى.

النشاط الفكري والثقافي بجامعة الزيتونة خلال سنة 2007

ع/ر	التاريخ	المنظم	نوعية النشاط
1	2007/2/22-21-20	المعهد الأعلى لأصول الدين ومؤسسة كونراد أديناور الألمانية	ندوة علمية دولية بعنوان : الدين وثقافة السلوك الحضاري في المجتمع الإنساني.
2	2007/3/01	المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية	درس افتتاحي بعنوان: الكاتب الألماني قوتة أدبياً عربياً، ألقاه الأستاذ المنجي الشملي.
3	2007/3/07	وحدة فقهاء تونس (المعهد الأعلى لأصول الدين)	يوم دراسي بعنوان: التطبيقات المعاصرة للزكاة.
4	2007/3/12	مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان	يوم دراسي بعنوان: الفكر الإصلاحي في العالم العربي: بواعثه، قضايا وأهدافه.
5	2007/4/11	وحدة تاريخ القيروان (مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان)	لقاء فكري بعنوان: القيروان من خلال كتب الجغرافيا والرحلات.
6	2007/4/19-18	وحدة القرآن (المعهد الأعلى لأصول الدين)	يوم دراسي بعنوان: صحة الإنسان في القرآن الكريم.
7	2007/4/19	وحدة الحديث والسيرة (المعهد الأعلى لأصول الدين)	يوم دراسي بعنوان: توثيق النص عند المحدثين: المناهج والمرجعيات.
8	2007/5/03	رئاسة جامعة الزيتونة ومركز الدراسات الإسلامية بالقيروان وجامعة أم القرى بمكة المكرمة	ندوة علمية دولية بعنوان: الوسطية في المنهج الفقهي الحديث.
9	2007/9/26	مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان	مسامرة رمضان بعنوان: البعد الحضاري في التوحيد.
10	2007/9/28	المعهد الأعلى لأصول الدين	مسامرة رمضان بعنوان: القرآن الكريم.

ع/ر	التاريخ	المنظم	نوعية النشاط
11	2007/10/31-30	المعهد الأعلى لأصول الدين ومؤسسة كونراد أديناور الألمانية	ندوة علمية دولية بعنوان: الإسلام واحدا ومتعددا.
12	2007/11/29	المعهد الأعلى لأصول الدين	درس افتتاحي بعنوان: مكانة الحوار في الحضارة الإسلامية.